

القول بالصَّرفَةِ بين المؤيدين والمعارضين

معتوقة محمد حسن الحسائي (*)

المقدمة :

الحمد لله الذى هدانا للإيمان ، ومن علينا بدين الإسلام ، وجعل كتابنا أحسن الكتب ، وجعل رسولنا أعظم الرسل أيده بمعجزة الدهر والزمان يحاور القلوب والأفهام ، وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة للأنام سيدنا محمد خير ولد آدم أجمعين، صلاة وسلاما كاملين تامين عطرين يليقان بسيد المرسلين وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار ومن تبعهم من الأخيار ما تعاقب الليل والنهار .

إن كتاب الله نور وضياء وهدى وشفاء ، فتح الله به أعيننا عميا ، وأذانا صما، وقلوبنا غلغا ، هدى به من الضلالة ، وبصر به من الجهالة ، من تمسك به فله الحسنى وزيادة ، ومن جعله وراء ظهره فقد خسر الريادة والسعادة .

كان السلف أعمق إيمانا منا فأورثهم سبحانه الأرض وانقادت لهم الدنيا . وبعد فترة من الزمن استبدل بحكم المسلمين حكم الشياطين فمضت سنة الله وصار يتحكم فى المسلمين الأقل الأرنل .

ولكن القرآن مازال فى المكان الأطهر فى قلوب المسلمين لما وفر فى قلوبهم وقلوبنا أنه من رب العالمين ولكن الجاحدين والكافرين ومن فى قلبه زيغ من أبناء جلدتنا ومن مال عن الحق المبين لا يتبنون هذه المنزلة لكتاب الله العظيم فصاروا يقولون عليه الأقاويل ويدسون له الدساتس والأباطيل . فصار لزاما علينا نحن المسلمين نبذ تلك الأقاويل وإظهار عظمة كتاب الله الكريم ، وبيان صنوف إعجازه لنتملئ القلوب يقينا بهذا الكتاب العظيم .

(*) قسم التفسير بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية .

ومن هنا برزت أهمية موضوع الصرفة والقاتلين بها وبيان تفرد الكتاب العظيم بالإعجاز البلاغى الربانى :

لقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، فى قوم اشتهروا بالفصاحة وطلاقة اللسان ، ولما اختلط العرب بغيرهم من العجم ، وتعددت الثقافات والحضارات وتسللت الفلسفات من الفارسية واليونانية والهندية وعندها بدأ الحديث عن قضايا لم تكن قد قيلت فى الصدر الأول من الإسلام ومن هذه القضايا ، لم عجز العرب أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الفصاحة والبلاغة وهنا بدأ كل يدلى برأيه ويدلو بدلوه فى هذه القضية وكان من بين هذه الآراء من يقول الصُرْفَة بمعنى أن القرآن ليس إعجازه لشيء ذاتى فيه ، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته ، عند ذلك اهتم العلماء ببيان إعجاز القرآن . وفى هذا البحث المتواضع سوف نناقش ونقول أقوال القائلين بالصرفة من خلال كتب الإعجاز القرآنى والرد عليها .

سبب اختيار الموضوع :

قد من الله على بالالتحاق ببرنامج الدراسات العليا بجامعة أم القرى مرحلة الدكتوراه قسم التفسير لأئهل من معين القرآن العظيم وكان من ضمن المقررات مادة إعجاز القرآن وقد اختار أستاذ المادة الفاضل عدة مواضيع وأسند البحث فيها للطالبات فكان من نصيبى هذا الموضوع الشائق فمن خلال بعض الاستقراء تبين لى متعة القراءة فى موضوع الصرفة وكيفية رد العلماء على من قال بها ومن اتهم بقولها وبيان الصواب فى ذلك . أرجو من الله تعالى أن أوفق فى حسن عرض الموضوع والإيفاء بعناصره الهامة .

خطة البحث :

قسمت البحث فيه إلى مقدمة وثلاث فصول وخاتمة :

أما المقدمة فتحوى :

١- أهمية الموضوع .

٢- سبب اختيار الموضوع .

٣- خطة البحث .

٤- عملى فى البحث .

وأما الفصول فقسمتها إلى مباحث هى على النحو التالى :

الفصل الأول : الكلام عن الصرفة

وفيه مباحث :

الأول : تعريف الصرفة لغة واصطلاحاً

الثانى : المقصود من الصرفة لدى القائلين بها

الثالث : نشأة القول بالصرفة

الفصل الثانى : القائلون بالصرفة

وفيه مباحث :

الأول : من المعتزلة

الثانى : من الشيعة

الثالث : من أهل السنة

الفصل الثالث : إبطال القول بالصرفة

الخاتمة والفهارس .

منهجى فى البحث :

لقد قمت بتوفيق من الله بعمل دراسة متواضعة متعلقة بالصرفة والقائلين بها

والرد على قائلها ، ونهجت فى ذلك منهجاً أوضحه فيما يلى :

١- بالنسبة للتعريف بالكتب في الحاشية ، فقد سلكت المنهج العلمي ، أعرف بالكتاب في أول مرة أذكره فيها ، وذلك بذكر اسمه ، ثم اسم المؤلف ، ثم اسم المحقق إن وجد واشير بالجزء والصفحة هكذا (١٢/٢) . وأما بعد التعريف به أول مرة وورد ذكره في مرة أخرى أذكر الاسم مختصرا وأكتفى بذكر رقم الجزء والصفحة كما بينت .

٢- عزو النصوص لأصحابها .

٣- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ترفيعها .

٤- ترجمت للأعلام الواردة في البحث بذكر الاسم وبعض ما أشتهر به وتاريخ الوفاة.

٥- الترجمة ستكون في أول موضع يرد ذكر العلم فيه في البحث ، ثم انى أترك إشارة إلى أنه قد سبقت ترجمته إن ذكر مرة أخرى .

الفصل الأول

الكلام عن الصرفة

المبحث الأول :

معنى مصطلح الصرفة :

قبل الحديث عن الصرفة لابد من معرفة مدلولها اللغوي والاصطلاحي .

فالصرفة في اللغة :- من اداة (صرف) عند أهل اللغة يدور معناها حول

الرجوع والتحول والتقلب ، والمنع من جهة إلى جهة أخرى .

قوله : "صرف" معظم بابه يدل على رجوع الشيء ، من ذلك صرفتُ القوم صرفاً وانصرفوا ، إذا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا ، والصَّرَفُ في القرآن : التوبة ؛ لأنه يُرْجَع به عن رتبة المذنبين ، قال الخليل : الصَّرَفُ : فَضْلُ الذَّرْهِمِ عَلَى الذَّرْهِمِ فِي الْقِيَمَةِ ، ومعنى الصَّرَفُ عندنا : أنه شيء صُرِفَ إلى شيء ، كأن الدُّنْيَا صُرِفَ إلى الذَّرَاهِمِ ، أى رُجِعَ إِلَيْهَا ، إذا أَخَذْتَ بِذَلِكَ ، وَمِنْهُ اشْتَقَّ : اسْمُ الصَّيْرِ فِي ذَلِكَ ؛

لتصريفه أحدهما إلى الآخر ، وصَرَفَ الكلام : تزيينه والزيادة فيه ، وإنما سُمِّيَ بذلك؛ لأنه إذا زَيَّن صَرَفَ الأسماع إلى استماعه^(١).

وفى اللسان^(٢) : صرف : الصَرَف : ردُّ الشيء عن وجه ، صَرَفَهُ يَصْرِفُهُ صَرَفًا فَانْصَرَفَ . وصارَفَ نفسه عن الشيء : صَرَفَهَا عَنْهُ .

وقوله تعالى : (ثم انصرفوا)^(٣) رَجَعُوا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَمَعُوا فِيهِ ، وقيل : انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا . (صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ)^(٤) ؛ أى أَضَلَّهُم اللهُ مُجَازَةً عَلَى فَعْلِهِمْ ؛ وصَرَفْتُ الرَّجُلَ عَنْى فَانْصَرَفَ ، وَالْمُنْصَرَفُ : قَدْ يَكُونُ مَكَانًا وَقَدْ يَكُونُ مَصْدَرًا ، وقوله عز وجل : (سأصرف عن آياتي)^(٥) أى أَجْعَلُ جَزَاءَهُمُ الْإِضْلَالَ عَنْ هِدَايَةِ آيَاتِي . وقوله عز وجل : (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا)^(٦) أى مَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصْرِفُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْعَذَابَ وَلَا أَنْ يَنْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ . قال يونس : الصَّرَفُ الْحِيلَةُ ، وصَرَفْتُ الصَّبْيَانَ : قَلَّبْتُهُمْ . وصَرَفَ اللهُ عَنْكَ الْأَذَى ، وَاسْتَصْرَفْتَ اللهُ الْمَكَارَةَ .

وفى المفردات ألفاظ القرآن "تحت كلمة (صرف)" الصرف : ردُّ الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره ، يُقَالُ : صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ . وقوله عز وجل : "وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ" معناه أى : أَقْبَلْنَا بِهِمْ إِلَيْكَ وَإِلَى الْإِسْتِمَاعِ مِنْكَ ، وَالتَّصْرِيفُ : كَالصَّرَفِ إِلَّا فِي التَّكْثِيرِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي صَرْفِ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ ، وَمِنْ أَمْرٍ إِلَى أَمْرٍ ، وَتَصْرِيفُ الرِّيحِ هُوَ صَرْفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّةِ﴾^(٧) معناه أى : أَقْبَلْنَا بِهِمْ إِلَيْكَ وَإِلَى الْإِسْتِمَاعِ مِنْكَ ، وَالتَّصْرِيفُ : كَالصَّرَفِ إِلَّا فِي التَّكْثِيرِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي صَرْفِ الشَّيْءِ مِنْ

(١) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ٣/٣٤٢ ، مادة (صرف) .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، باب الصاد ٧/٣٢٨ .

(٣) التوبة (١٢٧)

(٤) الآية نفسها .

(٥) الأعراف (١٤٦) .

(٦) الفرقان (١٩) .

(٧) الأحقاف (٢٩)

حالة إلى حالة ، ومن أمر إلى أمر ، وتصريف الرياح هو صَرفُها من حالٍ إلى حالٍ قال تعالى : ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ ^(١) ومنه تصريف الكلام وتصريف الدراهم وتصريف النَّاب ، يُقال : لنا به صريف ، وقيل لكل خالص عن غيره صرف ، كأنه صُرف عنه ما يشوبه ^(٢) .

وتعنى الصرفة فى الاصطلاح : أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن ، وكانت فى مقدورهم ، لكن عاقبهم عنها أمر خارجى ، فصار معجزة كسائر المعجزات ، ولو لم يصرفهم عن ذلك ، لجاءوا بمثله ^(٣) .

فكان القوم الذين تحداهم الله بالقرآن تحولت هممهم وصرفت عن معارضة القرآن رغما عنهم مع قدرتهم على ذلك أو أنهم سلبوا القدرة والعلوم التى بها يقدرُونَ على الإتيان بمثل القرآن . وعلى هذا القول فمعنى الصرفة أن الله تعالى لم يمكنهم من الإتيان بمثل القرآن وأن القرآن غير معجز فى ذاته فالإعجاز عند القائلين بالصرفة تأثير خارجى لا يرجع إلى نسق الكلام القرآنى ونظمه .

المبحث الثانى : المقصود من الصرفة لدى القائلين بها

اختلف القائلون بالصرفة فى بيان حقيقة ما يقصدونه فقالوا إن الله سبحانه وتعالى لأجل إثبات التحدى حال بين فصحاء العرب وبلغاتهم . وبين الإتيان بمثل القرآن على وجوه منها :-

١- أن الله تعالى منعهم عن القيام بالمعارضة على جهة القسر مع كونهم قادرين عليها فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة بمعنى أن دواعيهم وهممهم صرفت عن الالتفات لهذا الأمر ولولا ذلك لأتوا بمثله .

٢- أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مع توفر أسبابها لديهم .

(١) طه (١١٩)

(٢) الراحب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ٩٣/٢ . والسيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، ١١٨/٢ .

٣- أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه ، وهذا يمكن تنزيله على وجين هما :

الأول : أن تكون تلك العلوم حاصلة لهم مستمرة ولكن الله أزالها ومحأها .

الثاني : أن تكون العلوم غير حاصلة ولكن الله صرفهم عن إيجادها .

والفرق بين القول الأول والثالث - فى الأول - القوم يملكون دواعى المعارضة ولكن الله منعهم وسلب قواهم عن ذلك . - أما الثالث - فإنه يذكر العلوم اللازمة سواء توفرت الدواعى عليها أم لا^(١) .

المبحث الثالث : نشأة القول بالصرفة

كان العرب يسمعون القرآن ويعجبون به ، ويكادون يسجدون لفصاحته ، ويوقنون - يقين العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر^(٢) . لقد كان النوق العربى السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية فى مخاطباته ، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم ، وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا فى النفوس .

ومضى القرن الأول ، وتبعه القرن الثانى ، والعلماء لا يمسون نواحي إعجاز القرآن فجاء القرن الثالث ، وبدأ اللسان العربى يفقد صفاؤه ونقاؤه ، وبدأت الثقافات المختلفة ، والفلسفات الهندية ، والفارسية ، واليونانية ، تتسلل إلى المجتمع الإسلامى ، واتسعت الخلافات المذهبية ، وتعددت الملل ، وتفرقت الأهواء والسبل ، واشتدت المعارك ، وقويت الخصومة ، وثار الجدل حول الآراء الكلامية ، وقد نال إعجاز القرآن نصيبه من ذلك ، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن ، فظهر قول غريب فى البصرة التى كانت تموج

(١) انظر محسن سميح الخالدى : مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الشرعية ، مج ١٢/العدد ٢ ص

٣٠٨ ومحمد موسى الشريف : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطى والعلماء ، ص ٩٤-٩٥ .

(٢) انظر مقال : مذهب الصرفة ، مجلة الأزهر الشريف ، مج ٢١/ ١٣٦٩ هـ ، د . على محمد حسن

العمارى ، ص ٤١/ .

بالتيارات الفكرية المختلفة ، مفاده : أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه ، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته وهذا ما يعرف بالصرفة ويعزى القول بالصرفة عند كثير من الباحثين ، إلى أنه من التيارات التي وفدت علينا من الخارج ، وأن بعض المتفلسفين من علماء الكلام ، وقفوا على أقوال البراهمة في كتابهم الفيدا^(١) ، وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار بل يقول خاصتهم : إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله أى أنهم ممنوعون منعاً كاملاً ، أو لأن براهما^(٢) صرفهم عن أن يأتوا بمثله بمقتضى تكوين .

والظاهر أن هذه الفكرة قد وفدت للساحة الفكرية الإسلامية ، عندما ترجمت الفلسفات الهندية في عهد الخلافة العباسية فتلقف الذين يحبون كل وافد وجديد من الأفكار ، ويركنون إلى الإغراب في أقوالهم ، هذه الفكرة الغريبة الوافدة ، ودفعتهم الفلسفة إلى أن يعتقدوا هذا القول ويطبقوه على القرآن - وإن كان لا ينطبق - ، فقال قائلهم : إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ، ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله^(٣) . وبهذا شاعت وظهرت فكرة الصرفة وأن القرآن ليس معجزاً بذاته ومعنى هذا أن بلاغة القرآن لا تزيد على بلاغة سائر الناس ويقتضى ذلك إن القرآن مساو لكلام البشر وإن كان كلام الله تعالى .

ويذكر في كتب البلاغة والإعجاز إن أول ما ظهر من الكلام في القرآن قولهم إن القرآن مخلوق وتبع ذلك إنكار الأخبار الواردة فيه كتكليم الله موسى وقد وقع لبعض الغلاة منهم العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد وهم من الخوارج^(٤) نكروا سورة يوسف وإنها ليست من القرآن وقد عميت أبصارهن عن النظم والأسلوب

(١) الفيدا : كتاب يشمل أربعة كتب مقدسة للهندوس ، وقد كتب باللغة السنسكريتية ، محمد غلاب : مشكلة الإلهية - ص ٩٧ .

(٢) براهما : من آلهة الهندوس ، وهو عندهم مرادف للمطلق الأعلى أو (الأكمان) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٣) أبو زهرة : المعجزة الكبرى - القرآن - ، ص ٦٩-٧١ .

(٤) عبد القاهر الاسفرائيني : الفرق بين الفرق ، حقق أصوله محمد الحميد ص ٩٣ .

القرأني وكذلك الروافض يزعمون إن القرآن بدل وزيد فيه ونقص منه^(١) ، وعندما أقبل البعض على دراسة كتب الفلسفة من الثقافات الدخيلة على الإسلام ظهر من بنى الإسلام من مزج بين الفلسفة كونها نظرا صرفا وبين الدين على كونه يقينا محضاً وتغلغلوا في ذلك حتى اختلفوا في آرائهم ووصل الخلاف إلى إعجاز القرآن وبدعوا يتكلمون وينادون أن إعجاز القرآن كان بالصرفة . وقيل إن هذا القول لم يتبناه أحد من أبناء جلدتنا بل هي فكرة مدسوسة من أعداء الإسلام ، وطعن في نسبتها إلى علماء المسلمين .

وقد اتضح من خلال استقراء من سبق من العلماء العالمين أن أول من نادى بالصرفة وجهر بها هو (إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي)^(٢) ، المتأثر بفكر البراهمة.

ومن هنا نستطيع القول : إن الصرفة نشأت في أحضان المعتزلة وعند شيخ من شيوخهم ومع هذا نجد أن أكثر المعتزلة يكفرون إبراهيم النظام مثل أبو الهذيل^(٣) والجبائي^(٤) والاسكافي^(٥) .

وينبغي التنويه إلى أننا لا نستطيع أن نجعل القول بالصرفة خاصا بالمعتزلة وحدهم ، أو ننزل هذا القول على المعتزلة عموما لأن منهم من يقول إن القرآن معجز في نظمه ، وقد وجد أن من أئمة أهل السنة من قال بها وهذا لا يعنى أنهم يقرون بها

(١) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام البصري المتكلم معتزلي تكلم في القدر توفي (٢٢١) .
الذهبي : سير إعلام النبلاء ٥٤٢/١٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ٦٧/١ . مجموعة من العلماء : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٤٩-٥٢ .

(٣) محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي من أئمة المعتزلة ت (٢٣٥) ابن حجر المصدر السابق ٤١٣/٥ .

(٤) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي من أئمة المعتزلة تنسب له الطائفة الجبائية ت (٣٠٣) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٨٠/١ .

(٥) محمد بن عبد الله أبو جعفر الاسكافي من متكلمي المعتزلة وأحد أئمتهم تنسب إليه الطائفة الإسكافية ت ٢٤٠ هـ الذهبي : المصدر السابق ، ٥٥٠/١٠ .

البينة ، والقصد من ذلك هو أننا نشير إلى منبب القول ونشأته وأن أوائل من أشاعوا القول بالصرفة هم المعتزلة .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً معرفة بعض بواعث القول بالصرفة والتي تختلف باختلاف حال القائلين بها ومرادهم من قولهم وأنهم ينقسمون إلى قسمين^(١) :

الأول : ملحد زنديق ضال .

الثاني : شخص التبست عليه الأمور واختلط عليه مفهوم الصرفة .

أما الأول : فقد يكون من وراء قوله أمور منها :-

١- الدس والطعن في الدين والنبوات وذلك من خلال الطعن في القرآن معجزة سيد المرسلين^(٢) .

٢- الشك والتردد لوجود بعض الكلمات في لغة العرب توافق ما في القرآن ولا عجب في ذلك^(٣) فقد قال تعالى في كتابه العزيز ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٤) .

أما الثاني : فقد يكون من وراء قوله أمور منها :-

١- إن القول بالصرفة يثبت صدق الرسول لأن تدخل قدرة الله تعالى في صرف قدرات العرب وطاقتهم عن الإتيان بمثل القرآن تأييدا لرسوله ودلاله على صدقه فيما جاء به^(٥) .

(١) الخالدي : المصدر السابق ، ص ٣١١ .

(٢) الخطيب : الإعجاز في دراسات السابقين ، ص ١١٤ .

(٣) يحيى العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ٣/٢٩٢ بتصرف .

(٤) الشعراء (١٩٣-١٩٥) .

(٥) البيهقي : الاعتقاد والهداية .. ، ص ٢٥٩ .

٢- إن اختلاف مفهوم الصرفة وعدم وجود تعريف ومفهوم محدد لها لاختلاف إطلاقاته عند القائلين بها ، وجب علينا الوقوف عند أقوال القائلين بالصرفة وتمحيص القول ليتجلى المراد والمقصود من قولهم . ومن خلال ذلك نستطيع أن نلتمس بعض العذر لبعض العلماء الأجلاء القائلين بالصرفة^(١) قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢).

وبما أن الصرفة يختلف مفهومها عند القائلين بها فمن الخطأ أن ننسب القول بها جملة إذ ليس لها مصطلح واحد يتفق عليه الجميع قائلين بها . وهذا مثله مثل المصطلحات التي لم يضبط معناها ويحدد على السنة الكثير من علماء المسلمين والعامة من الناس ومن الظلم أن نجعل القائلين بهذا المصطلح بحكم واحد لذلك من الواجب أن نوضح مفهوم كل من ورد عنه القول بالصرفة حتى لا نظلم هذا أو ذاك ، ونقوله ما لم يقل ومن هنا كان الفصل التالي للوقوف على أشهر القائلين بالصرفة وبيان مرادهم .

المبحث الأول : القائلون بالصرفة من المعتزلة

يرى كثير من المؤرخين لهذه الدعوى ، أنها بدأت بالظهور والجلء في بيئة المعتزلة على يد أبي إسحاق إبراهيم النظام ، والذي يوصف أنه صاحب نباهة وبيان . وهو معدود من أذكى المعتزلة قرر مذهب الفلاسفة في القدر .

١- مفهوم الصرفة عند النظام :

هي صرف الدواعي عن المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزا حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً^(٣) .

(١) الخالدي : المصدر السابق ، ص ٣١٢ .

(٢) الحجرات (٦) .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ، ٧١/١ .

قال أبو الحسن الأشعري^(١) قال النظام الآية الأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم^(٢) .

ويقول البغدادي^(٣) من فضائح النظام قوله "إن نظم القرآن وحسن تأليفه وكلماته لي بمعجزة النبي ﷺ ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الأخبار عن الغيوب ، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف"^(٤) . هذا بعض ما قاله النظام .

من المهم أن نقرر أن نص "كلام" النظام في هذا ليس بين أيدينا ، وإن نسبه إليه جمع من أهل العلم ، وكثير من تراث المعتزلة في (إعجاز القرآن الكريم) فقدتته الأمة على الرغم من أنهم كانوا أصحاب الكلمة المسموعة المنصورة زمن "المأمون" ومن بعده حتى جاء المتوكل فأخذ نارهم وكسر شوكتهم ، وأعاد لأهل السنة قدرهم. ولعل المعارضين للمعتزلة ، ولأسيما الذين اکتوا بطاغوتهم زمن علوهم أرادوا حماية الأمة من ضلالهم الذي أودعوه تراثهم ، فتخلصوا منه^(٥) . وإذا ما نظرنا في مقدمة كتاب "الملل والنحل" لأبي الفتح الشهرستاني رأيناه يقول : "وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم ، من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله ، وإن كان لا يخفى على الأقدام الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ، ونفحات الباطل"^(٦) . وهو

(١) هو أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري : مؤسس مذهب الأشاعرة من أئمة المتكلمين صاحب مصنفات عدة من أشهرها . مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين توفي ٣٢٤هـ ، المبيكى : طبقات الشافعية ٢/٢٤٥ .

(٢) الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ص ٢٥٥ .

(٣) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق توفي ٤٢٩ .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ١٤٣ .

(٥) سامي عطا : إعجاز القرآن بالصرافة ودلالة القائلين بها ، ص ١٨ .

(٦) الشهرستاني : المصدر السابق ، ص ٧ .

فى ذكره مقالات المعتزلة وغيرهم لا يذكر - غالبا - المصدر الذى ينقل منه ، ومن الحيف العلمى نقد مقالات الرجال بروايات لم تستمد يقينا من أسفارهم ، ولا سيما إذا ما كانت الرواة من غير مذهبهم .

"إن ما دفع النظام إلى القول بالصرفة دخوله فى حومة الجدل والملاحاة الكلامية.." (١).

٢- مفهوم الصرفة عند المر دار - (المز دار) -

هو أبو موسى عيسى بن صبيح البصرى كان يقال له راهب المعتزلة ، وهذا اللقب لائق به ان كان المراد به رهبانية النصارى ، ولقبه بالمر دار لائق به أيضا (٢). فقد تزهد وتعبد وتفرد بمسائل كسابقه النظام . وقد بالغ فى القول عن القرآن حيث قال "إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ، ونظما وبلاغة ، والقرآن مخلوق وكفر من قال أنه قديم" (٣) . وعزا القول إليه بذلك الجرجاني (٤) . وقد وافق النظام على إنكار إعجاز القرآن بنظمه وإن العباد قادرون على مثله ، عباد بن سليمان (٥) وهشام الفوطى (٦) وغيرهم .

٣- مفهوم الصرفة عند الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصرى المعتزلى صاحب التصانيف أخذ عن النظام وهو رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ويعتبر من فضلاء المعتزلة .

(١) محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغى ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٢) للذهبي المصدر السابق ، ٥٤٨/١ . ابن حجر : المصدر السابق ، ٣٩٨/٤ .

(٣) الشهرستاني : نفس المصدر ، ص ٨٣ : المصدر السابق للبغدادي ، ص ١٦٥ .

(٤) على بن محمد بن على الجرجاني نسبة إلى مدينة مشهورة بين طبرستان وخرسان ، من مقدمة كتابه التعريفات ، ص ٦-١٥ .

(٥) عباد بن سليمان الصخرى : معتزلى من أهل البصرة من تلاميذ هشام بن عمرو الفوطى كان معتزليا ثم تحول إلى مذهب الزنادقة . ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٩ ، ٢٨٠ .

(٦) هشام بن عمرو الفوطى : بصرى المذهب ، عده القاضى فى نهاية الطبقة السادسة من المعتزلة ، وكان يحظى باحترام المأمون . القاضى المعتزلى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٩ .

أثر عنه القول بالصرفة حيث قال "ومثل ذلك ما وقع من أوهام العرب
وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه ، ولذلك لم
نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه^(١) وقال " فانا نقول بالصرفة فى عامة
هذه الأصول ... وإنما سموه التيه حين تاهوا فيه لأن الله تعالى حين أراد أن يمتحنهم
ويبتليهم صرف أوهامهم وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة
القرآن ولم يأتوا به مضطربا ولا متفقا ولا مستكرها ...^(٢) .

مع أن الجاحظ يظهر من أقواله فى كتبه القول بالصرفة صراحة وبكل
وضوح ولكن مع هذا فهو يرى أن القرآن معجز بنظمه ، فى كتاب البيان والتبيين
للجاحظ يقول "الا ترى انا نزع من عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على
العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة .."^(٣) .
وفى نفس الكتاب يقول "وفى كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق نظم
النبي الذى لا يقدر على مثله العباد"^(٤) .

ونقل السيوطى عن الجاحظ فى كتابه المفقود نظم القرآن قوله "بعث الله
محمدا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة ... وهو فى ذلك
يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صلاحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة
واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريبا لعجزهم عنها تكشف من
نقصهم ما كان مستورا وظهر منه ما كان خفيا ..."^(٥) .

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الجاحظ قد جمع بين الصرفة وإعجاز القرآن
فى نظمه ولنا هنا تساؤل هل الصرفة عند الجاحظ هى ما عند شيخه النظام ؟ وكيف
له أن يجمع بين القول بالصرفة القول بإعجاز القرآن بنظمه ، وهذا ما حير البعض!

(١) الجاحظ : الحيوان ٤/٤١ .

(٢) المصدر السابق ٦/٤٨٣ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ١/٥٢٧ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ٤/٤٢ .

(٥) السيوطى : الإتيان فى علوم القرآن ٤/٥ .

فالصرفة عند "النظام" لولاها لأتى العباد بمثل نظم القرآن الكريم ، والصرفة عند الجاحظ لولاها لأتى العباد بمحاولة لما هو من دون نظم القرآن الكريم بكثير كثير . يتبين من هذا الفرق بين الصرفتين لدى النظام والجاحظ .

فهل قال الجاحظ بالصرفة عندما كان متأثراً بشيخه النظام والثانى عندما استقل بنفسه ! انه يذكر الرأيين متتاليين تقريبا ، ومنهم من قال إن كتابته لم تكن معا فى وقت واحد لأن الرأيين متناقضان .

"يذهب الرافعى إلى أن قول "الجاحظ" بالصرفة مع قوله بالإعجاز البيانى إنما هو من تخليطه واضطرابه ، أو مما بقى من آثار أستاذه (النظام) فى نفسه .

يقول : أما "الجاحظ" فإن رأيه فى الإعجاز كراى أهل العربية ، وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، وله فى ذلك أقوال نشير إلى بعضها فى موضعه غير أن الرجل كثير الاضطراب ، فإن المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم فى متحل... ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة ، وإن كان قد أخفاها ، وأما إليها عن عرض ، فقد سرد فى موضع من كتاب "الحيوان" طائفة من أنواع العجز ، وردّها فى العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم ، ثم عدّ منها ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحدّاهم الرسول - ﷺ - بنظمه .

وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شيء ينزل على حكم الملابس ، ويعتري أكثر الناس إلا من تتبّه له أو نبه عليه ، أو يكون ناقلا ، ولا ندرى^(١) .

٤- مفهوم الصرفة عند الرماني :

هو أبو الحسن بن على بن عبد الله النحوى المعتزلى^(٢) ووجوه الإعجاز عنده متعددة قال "ووجوه إعجاز القرآن تظهر فى سبع جهات ترك المعارضة مع توفر

(١) الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٤٦-١٤٧ .

(٢) للذهبي : المصدر السابق ٥٣٣/١٦ .

الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقص العادة ، وقياسه بكل معجزة^(١) ويقول الرماني :-

(وأما الصرفة : فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم ، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم ، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز ، التي يظهر منها للعقول)^(٢) . ومن خلال ما أورده الرماني يتضح أنه يقر ببلاغة القرآن غير أنه يمزج معها الصرفة وهذا ما يجعله يتفق مع الجاحظ في مفهوم الصرفة ، أي أن القرآن معجز ببلاغته وأن الله صرف همم العرب عن معارضته خوفا من أن يلتبس على ضعاف النفوس والعقول ويتبين من ذلك أن الرماني وقع فيما وقع فيه الجاحظ من الجمع بين المتعارضتان .

٥- مفهوم الصرفة عند القاضي عبد الجبار :

هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل أبو الحسن الهمداني المتكلم شيخ المعتزلة من كبار فقهاء الشافعية^(٣) . يرى القاضي أن عجز العرب عن معارضة القرآن كان لعجزهم عن الإتيان بمثله وبين أن العرب علموا تعذر مثله منهم فصار علمهم صرفا لهم عن المعارضة حيث قال : أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة ... ، ولولا علمهم بذلك لم تكن لتتصرف دواعيهم . لأننا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة^(٤) . هذا عدد من أبرز أئمة الاعتزال تكلموا في إعجاز القرآن ونسبوا عجز العرب عن معارضته البيانية إلى (الصرفة) التي صرفوا بها .

(١) الرماني : النكت في إعجاز القرآن ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، ٤٦٩/١٧ . لابن حجر : المصدر السابق ٣/٢٨٦ .

(٤) عبد الجبار ابادي : المغني في أبواب التوحيد والمثل ، ٣٢٤-٣١٨/١٦ .

وبهذا نلخص مفهوم الصرفة عند المعتزلة^(١) :

المفهوم الأول : النظامى أن العرب صرفوا بصارف خارجى عن الإتيان بمثل القرآن.

المفهوم الثانى :- الجاحظى والرمائى الصرفة ضرب من التدبير الإلهى لحفظ القرآن من عبث العابثين فقد صرف الله نفوس القوم عن معارضة القرآن .

المفهوم الثالث :- مفهوم عبد الجبار إدراك العرب بعلو أسلوب القرآن ونظمه وبيانسه وأنه لا يمكن مجاراته ومعارضته فانصرفوا اقتناعا منهم بالعجز فالأمر انصراف وليس صرفة .

المبحث الثانى : القائلون بالصرفة من الشيعة

لقد تكلم عن الصرفة أيضا فرقة الشيعة وهم من شايعوا عليا عليه السلام على الخصوص . وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية ، إما جليا أو خفيا ، واعتقدوا إن الإمامة لا تخرج عن أولاده^(٢) .

١- مفهوم الصرفة عند الشيخ المفيد :

هو محمد بن محمد النعمان البغدادي ت (٣٣٨) قال فى وجه إعجاز القرآن :
(إن جهة ذلك : هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضته النبى - ﷺ - بمثله فى النظام ، عند تحديده لهم ، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله - وإن كان فى مقدورهم - دليلا على نبوته ، واللفظ من الله تعالى مستمر فى الصرف عنه إلى آخر الزمان ، وهذا أوضح برهان فى الإعجاز ، وأعجب بيان وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال)^(٣) .

(١) انظر وليد القصاب : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ، ص ٣٢٠ - ٣٢٣ .

(٢) الشهرستاني : المصدر السابق ، ١/ ١٦٩ .

(٣) جعفر السبحاني : الإلهيات ، ص ٣٤١ ، نقلا عن أوائل المقالات للشيخ المفيد ، ص ٣١ .

٢- مفهوم الصرفة عند الشريف المرتضى :

هو العلامة الشريف أبو القاسم علي بن حسين بن موسى العلوي الحسيني الموسوي ت (٤٦٣) (١) .

يرى الشريف المرتضى أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها من أجل المعارضة (٢) .

٣- مفهوم الصرفة عند ابن سنان الخفاجي :

هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي ت (٤٦٦) ، الشاعر الأديب . كان يرى رأى الشيعة الإمامية في إمامة علي عليه السلام نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا (٣) .

حيث قال "متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ... وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة" (٤) .

فابن سنان يرى فيما ذهب إليه من أن القرآن الكريم معجز بصرف العرب عن معارضته وهم قادرون عليها صرفا متحققا بسلب علومهم التي يمتلكونها من قبل نزول القرآن الكريم ، ومن بعد نزوله حين لا يريدون معارضتها ، فإن أرادوا المعارضة تسلطت عليهم القدرة الإلهية فسلبتهم ما كانوا متمكنين فيه . وهذا خطأ كبير من ابن سنان الذي يقرر في بعض آرائه أن القرآن الكريم ليس من المتلائم في الطبقة العليا ، وغيره في الوسطى بل أنه ليرى أنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية .

(١) الذمى المصدر السابق ٥٨٨/١٧ وحاجي خليفة : كشف الظنون ، ٧٩٤/١ .

(٢) الرافعي : تاريخ آداب العرب ١٤٤/٢ والخطيب لإعجاز في دراسات السابقين ، ص ٣٦٥ .

(٣) انظر الكتبي : فوات الوفيات ، ٢٢٠-٢٢٤ وللشهرستاني : المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٤) الخفاجي : سر النصيحة ، ص ٩٩-١٠٠ .

ولا يكتفى بهذا بل يرى أن الرجوع إلى الحق والاعتماد على حسن الفقه لبيان العربية قاض بأن فى كلام العرب ما يضاهى القرآن الكريم فى تأليفه وأن القول بعلو القرآن الكريم بلاغة وتأليفاً ينفر عنه من له بالأدب ونقده صلة^(١) .

المبحث الثالث : القائلون بالصرفة من أهل السنة

قد يستغرب كثير من الباحثين عندما يقرأ أن بعض كبار علماء أهل السنة يقولون بالصرفة بمفهومها النظامي ، أو الجاحظي . وفى هذا المبحث نسرد أقوال أئمة من أهل السنة قالوا بالصرفة على ذلك المفهوم :-

١-الصرفة عند أبى الحسن الأشعرى^(٢) .

ينقل عنه الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل "القرآن عنده معجزة من حيث البلاغة ، والنظم ، والفصاحة ، إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة . فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى وهو المنع من المعارضة ، ومن جهة الإخبار عن الغيب"^(٣) .

وقال الشيخ السفارينى وذهب الشيخ أبو الحسن الأشعرى "إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدروهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ، ولا يكون ، فمنعهم الله هذا ، وعجزهم عنه"^(٤) .

ومنهم من عدها وجهاً من وجوه الإعجاز .

١-الماوردى :

هو الإمام على بن محمد بن حبيب الشافعى ، أقضى القضاة ، صاحب التصانيف تبحر فى المذهب الشافعى ت (٤٥٠) ^(٥) .

(١) الخفاجى : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٢) سبق التعريف به ، ص ١٢ .

(٣) الشهرستانى : المصدر السابق ، ١١٦/١ .

(٤) محمد بن أحمد السفارينى : لواعى الأنوار البهية ، ١٧٥/١ .

(٥) الذهبى : المصدر السابق ، ٦٨-٦٤/١٨ .

قد فصل في كتابه (أعلام النبوة) أوجه الإعجاز في كتاب الله ، فذكر عشرين وجها لإعجاز القرآن منها القول بالصرفة حيث قال "الوجه العشرون من إعجازه "الصرفة" عن معارضته واختلف من قال بها : هل صرفوا عن المقدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم ؟ على قولين : أحدهما : أنهم صرفوا عن القدرة ، ولو قدروا لعارضوا .

ثانيها : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم ، والصرفة إعجاز على القولين معا في قول ن نفاها وأثبتا - الصرفة معجزة في قول من نفاها لأن النفي ينتج عنه أن القرآن معجز في ذاته ، ومن أثبت الصرفة فإن الله صرف العرب عن المعارضة وهذا أمر يدل على أن النبوة والقرآن من عند الله (١) .

٢- ابن حزم الأندلسي الظاهري :

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي صاحب تصانيف ت (٤٥٦) (٢) . ينص ابن حزم على القول بالصرفة صراحة في كتابه الفصل وينص على أنها الوجه الرئيس لإعجاز القرآن ويضيف إليها أوجه أخرى ، وقد وجد في معرض كلامه عن الإعجاز أنه يقول "ولكن الإعجاز في ذلك إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ورفع عنهم القوة في ذلك جملة" (٣) .

وقال أيضا "قيام البرهان عن إن القرآن معجز قد اعجز الله عن مثله نظمته جميع العرب وغيرهم من الأنس والجن بتعجيز رسول الله ﷺ كل من ذكرنا عن أن يأتوا بمثله .." (٤) ثم قال أيضا "لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله تعالى

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ٩٥ .

(٢) للذهبي : المصدر السابق ١٨/١٨٤-٢١٢ .

(٣) ابن حزم : الفصل في الملك والأمواء والنحل ٨٧/١ .

(٤) ابن حزم : المصدر السابق ١٠/٣ .

معجز لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له أصاره معجزا ومنع من مماثلته ، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره ، والحمد لله^(١) .

فجملته "أصاره معجزا ومنع من مماثلته" قد يفهم منه الصرفة ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن كلام ابن حزم في الإعجاز مداره على الصرفة ويضاف إليها الإخبار بالغيب ، أما إعجاز النظم والبلاغة عنده فهو إعجاز غير ملموس لأنه يقول هو معجز لأنه من عند الله ويرى انه ليس من نوع بلاغة الناس^(٢) .

٣-الراغب الأصفهاني .

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، الملقب بالراغب صاحب التصانيف ت (٥٠٢) (٣) .

قال "الإعجاز في القرآن على وجهين : أحدهما إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني بصرف الناس عن معارضته وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم الإتيان بمثله ، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب أن صارفا إليها يصرفهم عن ذلك"^(٤) .

ومن هنا يظهر من كلام الراغب أن العرب البلغاء إن خلى بينهم وبين بلاغة القرآن ولم يكن هناك من يساندهم ويعاونهم فإنهم عاجزون عن التحدي لما وصل إليه القرآن من سمو والعلو والفصاحة .

٤-الاسفراييني :

هو الإمام العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفراييني الأصولي الشافعي صاحب المصنفات ت (٤١٨) (٥) .

(١) ابن حزم : المصدر نفسه ١٢/٣ .

(٢) ابن حزم : المصدر السابق ١٢/٣-١٤ .

(٣) للذهبي : المصدر السابق ١٢٠/١٨-١٢١ . والزركلی : الأعلام ٢٥٥/٢ .

(٤) أحمد فرحات : مقدمة جامع التفسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ، ص ١٣-١٦ . ١٠٨-١٠٩ .

(٥) للذهبي : المصدر السابق ، ٣٥٣/٧-٣٥٦ .

قال "إعجازه بالصرفة على معنى إن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته ، واختلف في كيفية الصرف فقال الأستاذ - منا- (أى من أهل السنة) - والنظام من المعتزلة : صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها ، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها خصوصا ، عند توافر السباب الداعية في حقهم كالتفريع بالعجز ، والاستئزال عن الرياسات ، والتكليف بالانقياد .." (١) .

٥- البيهقي :

الحافظ العلامة الثبت الفقيه أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى صاحب السنن وله الكثير من المصنفات ت ٤٥٨هـ (٢) .

قال البيهقي في كتابه في معرض سرده لوجوه الإعجاز المختلفة التي اعتبرها من دلائل نبوة وصدق ما جاء به الرسول الكريم قال " .. ومنهم من قال إعجازه في إن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدى وتوفر الدواعي إليه لتكون آية للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه" (٣) . وعند شرح الأقوال قال "وأما الصرفة والتعجيز مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله فإنما يعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة إليه وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته"

فلما لم يفعلوه دل على عجزهم عن ذلك ، وسبيل هذا رجل عاقل اشدد به العطش وبحضرته ماء فجعل يتلوى من شدة الظما ولا يشرب الماء فلا يشك شاك أنه عاجز عن شربه أو ممنوع لسبب يعوقه عنه ، وأنه لم يتركه اختيارا مع توفر الدواعي له وشدة الحاجة منه إليه ، وهذا بين والحمد لله .." (٤) .

(١) السالكوتي وحسن حليبي : شرح المواقف مع حاشيته ، ٢/٤٢١ .

(٢) للذهبي : المصدر السابق ١٨/١٦٣ .

(٣) البيهقي : الاعتقاد ص ٢٥٩ .

(٤) البيهقي : المصدر السابق ٢٦٦ .

٦- ابن القيم الجوزية :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم
الدمشقي ابن قيم الجوزية الفقيه الأصولي المفسر النحوي لازم الشيخ تقي الدين ابن
تيمية وأخذ عنه ، تفقه في المذهب الحنبلي ت (٧٥١) (١) .

قال ابن القيم بعد أن أورد وجوها متعددة في إعجاز القرآن وقال قوم
إعجازه صرف الله خلقه عن القدرة على الإتيان بمثله ، ولولا ذلك لدخل تحت
مقدورهم والذي يتعين اعتقاده أن القرآن بجملة ألفاظه ومعانيه ، وبعضه وكله
معجزة ، إما لسلب قدرتهم عن الإتيان بمثله ، وإما لصرفهم عنه (٢) .
ومنهم من يراها صالحة على سبيل الفرض والتنزل والاحتمال .

١- ابن كثير :

هو الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير ت ٧٧٤هـ (٣) حيث قال إنها
"صالحة على سبيل التنزل ، والمجادلة ، والمنافعة عن الحق ، فقال في تفسيره وقد
قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة ، وقول المعتزلة في
الصرفة ، فقال : إن كان القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، ولا
في قواهم معارضته ، فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان في إمكانهم
معارضته بمثله ، ولم يفعلوا مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلاً على أنه من عند
الله ، لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة - وإن لم تكن
مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا - إلا أنها
تصلح على سبيل التنزل ، والمجادلة ، والمنافعة عن الحق" (٤) .

(١) ابن مفلح : المتصد الأرشد في نكر أصحاب الإمام أحمد ٣٨٥/٢ .

(٢) ابن القيم : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) ابن كثير : التفسير مقدمه التفسير ٥/١ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٦٠/١ .

أى أنها تصلح فى منازل من ينكر إعجاز القرآن بالكلىة وهم الكفرة ولا تصلح فى منازل من يؤمن بإعجازه على الجملة .

٢- الإمام الرازى :

هو محمد بن عمر بن الحسين بن على الملقب بفخر الدين ٦٠٦هـ^(١) . يقول بها مرة فى السور القصار ، منعا من المكابرة ، والتهمة فى الدين ، ويطلق القول بها ثانية على عمومها بلا تحديد ، ففى تفسيره (لآية التحدى) فى سورة البقرة ، يقول : "الطريق الثانى ، أن نقول : القرآن لا يخلو إما أن يقال : إنه كان بالغا فى الفصاحة إلى حد الإعجاز ، أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول : ثبت أنه معجز ، وإن كان الثانى : كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة ، مع كون المعارضة ممكنة ، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها ، أمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزا ، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه ، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب) ، فهنا أطلق القول ، ولم يحدد ذلك بسورة معينة ، ثم يقول بعد ذلك : (فإن قيل : قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر ، وسورة (قل يا أيها الكافرون) ، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله ، أو بما يقرب منه ممكن ، فإن قلتم : إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر ، كان ذلك مكابرة ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى ، وقلنا : إن بلغت هذه السورة فى الفصاحة إلى حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن الأمر كذلك ، كان امتناعهم عن المعارضة - مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره - معجزا ، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز"^(٢) .

بينما يقول فى مقدمة كتاب (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) : (والدليل على كون القرآن معجزا : أن الرسول - ﷺ - دعا العرب وتحداهم إلى معارضته ،

(١) الرازى : مفاتيح الغيب تفسير ١-٢/٣ .

(٢) الرازى : مفاتيح الغيب ، ١١٦/١ - ١١٧ ، ومحسن عبد الحميد : الرازى مفسرا ، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ولولا عجزهم ، ما تركوا المعارضة ، ليعرضوا أنفسهم
للسيوف والرماح ويقتحموا موارد الموت ، ولما آثروا القتال على الكلام^(١).

٣- الجويني :

هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ت ٤٧٨هـ — ،
فبعد أن قرر في كتابه - الإرشاد^(٢) أن وجه الإعجاز في القرآن هو "اجتماع الجزالة
مع الأسلوب ، والنظم المخالف لأساليب كلام العرب ، فلا يستقل النظم بالإعجاز على
التجريد ، ولا تستقل الجزالة أيضا ، ثم الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية "
يتراجع في كتابه (العقيدة النظامية)^(٣) .

ويناقض رأيه معلنا : أن وجه الإعجاز هو : الصرفة فقال "وقد أكثر الناس
في وجه إعجاز القرآن ، وتقطعوا فيه أيادي سباً ، وصار معظم الناس إلى أن القرآن
تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة ، خارج عن المعتاد في ذلك ، ثم
زعم زاعمون : أن إعجازه في شرف جزالته ، وذهب آخرون : إلى أن إعجازه في
الجزالة الفائقة ، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر ، والخطب ، والأراجيز ،
ثم يقول : - من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات ، مجاوز
لفصاحة اللد البلاء ، واللسن الفصحاء ، فقد حاد عن مدرك الحق " ، ثم يقرر
الجويني : أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن كان بسبب الصرفة ، فيقول "فتبين
قطعا أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم ، وذلك أبلغ عندنا من خرق
العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها ، ومن هدى إلى هذا المسلك فقد رشد إلى الخلق
المنير ، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا . إلى أن يقول : فإذا لم
تجر المعارضة ، لم يبق لامتناعها ، مع توفر الدواعي عليها محمل إلا صرف الله

(١) الرازي : تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢١ . الرازي : مفاتيح الغيب ١٧/١٩٥ .

(٢) الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، ص ٣٤٩ . الرازي : تسهيل نهاية الإيجاز في

دراية الإعجاز ص ٢١ . الرازي : المصدر السابق ١٧/١٩٥ . الجويني : المصدر نفسه ص ٣٤٩ .

(٣) ألفه الجويني بعد كتابه الإرشاد ، كما ذكر محققا الإرشاد (محمد يوسف موسى ، وزميله) انظر المقدمة :

ص/س .

الخلق ، فكيف يهتدى إلى إعجاز القرآن ، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة ، وشفاء الصدور في الحكم ؟ فإن مثله من مقدورات الخلق ، ولكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم^(١) .

٤- الغزالي :

عدها أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥ هـ^(٢) وجهاً من وجوه الإعجاز ، فقال في كتابه - الاقتصاد في الاعتقاد : "فإن قيل : ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا : الجزالة والنصاحة مع النظم العجيب ، والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم ، وسائر صنوف كلامهم ، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر ، نعم ، ربما يرى للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة ، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه من القرآن ، ولكن من غير جزالة ، بل مع ركافة ، كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال : الفيل وما أدراك ما الفيل .. الخ ، فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه ، مع ركافة يستغنها الفصحاء ، ويستهنئون بها ، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافة العرب منها العجب ، ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في فصاحته ، فهذا إنن معجز وخارج عن مقدور البشر من هذين الوجهين ، أعنى من اجتماع هذين الوجهين . فإن قيل : لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ، ولو قصدت لقدرت عليه ، أو منعته العوائق عن الاشتغال به ، والجواب : إن ما ذكره هوس ، فإن دفع تحدى المتحدى بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف ، مهما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبى ، وشن الغارات ، ثم ما ذكره غير دافع غرضنا ، فإن انصرفهم عن المعارضة لم تكن الابصر من الله تعالى ، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات^(٣) .

(١) الجويني : العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية - ص ٧٢-٧٣ باختصار يسير .

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين ترجمة ص ج .

(٣) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

هذه أقوال بعض الأئمة الأعلام من أهل السنة الذين قد قالوا بالصرفة وفهم منهم ذلك أو نصوا على القول بالصرفة يقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني :-
(إنى لأعجب من القول بالصرفة في ذاته ، ثم ليشد عجبى وأسفى ، حين ينسب إلى نفر من علماء المسلمين ، الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن ، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن على أن الحق لا يعرف بالرجال ، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال ، وما قد طاش هذا الرأي في الميزان .

وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر^(١)

ومن المحدثين الذين تبنا القول بالصرفة

صلاح الدين بسيونى رسلان . فهو من الذين قالوا بالصرفة من المحدثين حيث نص على أن عجز العرب عن الإتيان بمثله لأن ذلك خارج عن قدرتهم وأن صارفا إليها قد صرفهم عن أن يأتوا بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ، وقال ".... والصرفة ليست إقلالا من شأن القرآن بل هى لطف ورحمة من الله بالعباد أن يطمع فى القرآن ينطق فى نفسه القدرة على الإتيان بمثله أو معارضته فيتأثر به عامة الناس وتتبلبل الأفكار"^(٢) .

٤- ابن تيمية :

هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن تيمية الحرائى شيخ الإسلام صاحب المصنفات ت (٧٢٨هـ) ^(٣) .

قال فى الجواب الصحيح^(٤) "ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : أنه معجز بصرف الدواعى مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام مقتضى التام أو سلبهم القدرة

(١) محمد الزرقانى : مآهل العرفان فى علوم القرآن ، ٢/٢١٥ . بتصريف .

(٢) رسلان : القرآن الكريم رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن ص ٢٣٤ .

(٣) الذهبى : المصدر السابق ٢٨٨/٢٢ .

(٤) ابن تيمية : ٧٤-٧٥ . مجموع الفتاوى ٦٤/١٤ نقلا عن إعجاز القرآن للمواجى ص ١٨٥ .

المعتادة فى مثله سلبا عاما مثل قوله تعالى ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾^(١) فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل : وهو انه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس الإتيان بمثله فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة مع قيام الدواعى العظيمة إلى المعارضة - من أبلغ الآيات الخارقة للعادات - بمنزلة من يقول : إنى آخذ أسوال جميع أهل هذا البلد العظيم ، واضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله أو إلى ولى الأمر ، وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكى ! فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

ولو قدر أن واحدا صنف كتابا ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعرا يقدر أن يقولوا مثله ، وتحداهم كلهم ، فقال : عارضونى ، وإن لم تعارضونى فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودماءكم لى حلال ، امتنع فى العادة أن لا يعارضه أحد ، فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

والذى جاء بالقرآن قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعا ، ومن آمن بى دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بى دخل النار ، وقد أبيع لى قتل رجالهم وسبى ذراريتهم ، وغنيمة أموالهم ، ووجب عليهم - كلهم - طاعتى ، ومن لم يطعننى كان من أشقى الخلق ، ومن آياتى هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتى بمثله ، وأنا أخبركم أن أحدا لا يأتى بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين - فإن كانوا قادرين - ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعى قلوبهم ومنعها من أن تريد معارضته مع هذا التحدى العظيم ، أو سلبهم القدرة التى كانت فيهم قبل تحديه فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتى أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب ، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد فهذا من أبلغ الخوارق وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة . فثبت كونه خارقا للعادة على تقدير النقيضين النفى والإثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة فى نفس الأمر ،

(١) مريم آية (١٠)

فهذا غاية التنزيل وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرّون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه ﷺ من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه ، لكل من له أدنى تدبر كما قد أخبر في قوله تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) ، وأيضا فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة ، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه.....^(٢) .

الفصل الثالث

إبطال القول بالصرفة

لقد عرف العرب منذ جاهليّتهم بفصاحة الكلم ، فلهم القصيد الطويل والنثر البديع والرجز اللطيف والسجع الغريب ، ولههم المعلقات ومع هذا فقد ثبت عجزهم عن الإتيان بأقصر سورة من القرآن بل بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة فكيف ذاك لأن القرآن الكريم قد علا وسما ببلاغته ونظمه وحسن تأليف كلماته وتراكيبه . وبقيننا أن القرآن معجز بكل ما تتسع له كلمة الإعجاز وبكل ما يشتمله القرآن من مجالات متعددة .

ومن خلال الاستقراء وتفنيد القول بالصرفة وقائلها نجد من أقوالهم أنها على مذهبين :

المذهب الأول : مذهب النظام ومن تبعه حيث ذهبوا إلى إن العرب صرفوا جبرا عن المعارضة وأصلا لم يتوجهوا إليها ، ولو توجهوا لقدروا على الإتيان بمثل القرآن.

(١) الإسراء آية (٨٨) .

(٢) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٤٢٢/٥ - ٤٢٨ .

المذهب الثاني : مذهب الشريف المرتضى وابن سنان ومن تبعهما حيث ذهبوا إلى أن الله سلب من العرب علومهم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله ، ولو توجهوا لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن .

وكلا القولين مردود بأدلة عقلية وعقلية :

الأدلة العقلية :

يدل على فساد الصرفة قوله تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) . فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره^(٢) .

وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله لا تصل إليها المعجزات الأخرى ، وبين أن وجود القرآن بينهم يتلى عليهم كافيا ومغنيا عن كل معجزة مادية أخرى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) . فهذه الأوصاف والمزايا توجب أن يكون إعجازه ذاتيا قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(٤) .

أى لو كان من شأن كتاب أن يظهر له أثر في مثل هذه الأشياء لكان هذا القرآن أولى من كل كتاب بذلك . ويقول جل شأنه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ

(١) الإسراء (٨٨) .

(٢) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ وللزركشي المصدر السابق

١٠٥/٢ والسبوطي : المصدر السابق / ٧ .

(٣) العنكبوت (٥٠-٥١)

(٤) الرعد (٢١) .

اللَّهُ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(١) . فالقول بالصرفه يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن الكريم ويجعل الإعجاز فى المنع الذى حال بينهم وبين الإتيان بمثله^(٢) .

-إن الإعجاز القرآنى نابع من نظمه وذاته وقد اعترف البلغاء أنفسهم بذلك فقد أقر الوليد بن المغيرة - من زعماء قريش- بأن القرآن قول لا يضاهى وأن ما ظهر قلبه وما يظهر بعده فإنه محطم عند سفع عظمته حيث قال "قو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجز ولا قصيدة منى ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا . والله أن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة، انه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وأنه ليعلو وما يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته"^(٣) . وإلى هذا ذهب نده من المشركين عتبة بن ربيعة إذ قال لقومه : "إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، وإله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ .."^(٤) وقول أنيس شقيق أبى ذر رضى الله عنهما : "... لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على أقرأء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدى انه شعر والله انه لصادق وإنهم لكاذبون"^(٥) .

وعن محمد بن جبير عن أبيه قال : "سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، وذلك أول ما قرأ الإيمان فى قلبى"^(٦) .

(١) الزمر (٢٣)

(٢) العنبر : المعجزة الخالدة ، ص ١٦٦ .

(٣) البيهقى : دلائل النبوة ، ١٩٨/٢ والحاكم فى مستدركه وقال حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجه ووافقه الذهبى .

(٤) المصدر السابق ، ٢٠٢/٢ - ٢٠٤ .

(٥) صحيح البخارى كتاب مناقب الصحابة باب إسلام أبى ذر الغفارى ، ٢٤١/٤ صحيح مسلم فضائل الصحابة ١٩٢٠/٤ .

(٦) صحيح البخارى كتاب المغازى والسير باب تسمية من سمي أهل بدر ٢٠/٥ .

وهذا عمر الخطاب فاروق الأمة كان فى جاهليته أشد الناس عداء للإسلام
وأذى للمسلمين فما كان أحد يتوقع إسلامه وقصته مع أخته فاطمة فعندما قرأ صدر
سورة طه قال : "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .." (١) .

الأدلة العقلية :

-إجماع المسلمين قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن قبل خلاف المخالفين وهذا
دليل على أن الإعجاز نابع من ذات القرآن لا من أمر خارج عنه (٢) .

-ومما يدل على بطلانها انه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم
يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون المنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على
غيره فى نفسه وهذا يعارض ما انعقد عليه الإجماع (٣) .

-يلزم القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وهذا خرق لإجماع الأمة
وقد اجمعوا على بقاء معجزة الرسول لآخر الزمان وخلوه من الإعجاز يبطل كونه
معجزة (٤) .

-يلزم القول بالصرفة أن العرب بعد الوحي قد تراجعت فصاحتهم وبلاغتهم وقل
البيان والنظم ولكن المعهود أنهم كانوا وما زالوا بعد الوحي فى الذروة من
الفصاحة والبيان (٥) .

-لو أن العرب سلبوا القدرة لعلم العرب ذلك من أنفسهم ولتناطقوا به عادة ولتواتر
عنهم ذلك (٦) . ولو أن العلوم سلبت منهم فلماذا لم يلجأوا إلى كلام فصاحتهم من
القدماء الذين لم تسلب منهم العلوم ، فيأتوا بقطعة شعرية أو خطبة محفلة
فيعارضوا بها القرآن .

(١) ابن هشام : السيرة ، ص ٣٤٣ .

(٢) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٧٥/١ .

(٣) إعجاز القرآن : للباقلاني ، ص ٣٠ .

(٤) سبيح الخالدي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٥) الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص ٥٣ ولمحمد الشريف : المصدر السابق ، ص ١١٦-١١٧ .

(٦) الجرجاني : الرسالة الشافية ، ص ١٤٨-١٤٩ .

-وهناك احتمال لو أن إعجاز القرآن بالصرفة كما يزعمون لما لم يرد عن الرسول الكريم شيء عنها يوضحها ويبين لنا ماهيتها ومضمونها .

-إن ترك المعارضة بالحرف وبالنظم والكلام واللجوء إلى القتال والحرب والسنان من قريش وغيرها لدليل على إحساسهم بالعجز المطلق أما آيات الله^(١) .

-إن المحاولات السقيمة التي بدرت من مسيلمة وأمثاله لحماقات أصبحت أضحوكة الأجيال والأزمان ، وبهذا نقول إن محاولة المعارضة قد حصلت فلو كان ثمة صرفة لما أظهر هؤلاء من الكلام ما زعموا أنه معارض للقرآن .

-إن القول بالصرفة يجعل القرآن معجزة حسية معقدة خفية ، فلو كان المراد الإعجاز الحسى لما كان ثمة داع لجعله مصحوبا بتلك الصورة الكلامية مع التحدى بها^(٢) .

-والقول الفصل ما قاله المفسر ابن عطية حيث قال "وجه التحدى فى القرآن إنما بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه : إن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قسط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يبطل قول من قال : أن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى فى الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه . والصحيح إن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر فى إن الفصيح منهم ، يضعه خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذ بقريحة جامعة فيبذل فيها وينقح ، ثم لا

(١) مباحث فى أعجز القرآن : مصطفى مسلم ، ص ٦٦ .

(٢) الباقلائي : المصدر السابق ، ص ٢٩-٣٠ والخطابي : المصدر السابق ، ٢٠-٢١ والرافعى : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة ،
ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد^(١) .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصرفة لها مفاهيم عدة حسب قول من ذهب
إليها . يمكن أن نقول إن أول من نادى بالصرفة إبراهيم النظام المعتزلى الذى تأثر
بفكر البراهمة فى مسألة إبطال النبوات . بمعنى أن الصرفة نشأت فى بيئة المعتزلة
وتناقلها أناس من أهل السنة والشيعة ، لعل من نسب إليه القول بالصرفة من أهل
السنة ارتضوها على أنها وجه من وجوه الإعجاز على سبيل التنزل مع الخصم ،
ومن باب الاحتمالات العقلية لا على سبيل الوقوع^(٢) ، إن القول بالصرفة قول
اجتمعت الأدلة النقلية والعقلية على فسادها وبطلانها .

أخيرا إن استعظام العرب لفصاحة القرآن لهو دليل على بطلان الصرفة لأن القرآن
الكريم مصدر ربانى .

(١) مقدمة ابن عطية ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ والسيوطى : المصدر السابق ، ١١٩/٢ .

(٢) محمد موسى الشريف : المصدر السابق ص ١١٠ .

الخاتمة

هذه الدراسة المتواضعة تطلعنا على أن القول بالصرفة ساقط من أوله ، وفي هذا الخص ما توصلت إليه من نتائج مستفادة من الاستقراء هي :

- ١- أن القول بالصرفة لا دليل عليه من النقل والعقل .
- ٢- انكشف بطلان القول بالصرفة .
- ٣- القرآن معجز بكل وجوه الإعجاز .
- ٤- أن القول بالصرفة أدى إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن فاتجه المؤلفون إلى بيان أسرار البلاغة في كتاب الله الحميد .
- ٥- من الإنصاف ذكر أن أول من أفرد تصنيفا للحديث عن إعجاز القرآن هو الجاحظ في كتابه (نظم القرآن) وهذا ما حدا بأديب العصر الرافعي أن يعتذر عن الجاحظ عما صدر منه حيث قال "وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه "النظام" وهو شيء ينزل على حكم الملابس ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه ، أو يكون هو ناقلًا ولا ندري" (١) .
- ٦- القرآن إعجازه كامن فيه ومنبعث من ذاته .

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ١٦٥ .

مراجع البحث

- ١- إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بالقاهرة .
- ٢- إعجاز القرآن والبلاغة النبوة : مصطفى صادق الرافعي ، حققه محمد سعيد العريان ط٣ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
- ٣- إعجاز القرآن بالصرف : لسامي عطا .
- ٤- إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية مقارنة : محمد الشريف ، ط٢ - ١٤٢٢هـ - دار الأندلس الخضراء جده .
- ٥- الإعجاز في الدراسات السابقين : عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة .
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث : أحمد البيهقي ، تحقيق أحمد الكاتب ط١ ، ١٤٠١هـ - دار الأفاق الجديدة بيروت .
- ٦- أعلام النبوة : أبو الحسن الماوردي ، (ت ٤٥٠هـ) : الطبعة ١ - ١٩٧٨م تعليق عبد الرحمن محمود ، مكتبة الآداب، مصر .
- ٧- الإفتان في علوم القرآن: حلال الدين السيوطي ، حقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة، ط٣ ، ١٩٨٥م .
- ٨- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد : أمام الحرمين أبو المعالي الجويني، تحقيق د.محمد يوسف موسى وزميله ، طبع الخانجي بمصر سنة ١٩٥٠م .
- ٩- الإعجاز البلاغي : د. محمد محمد أبو موسى ، ط٢ ، ١٩٧٧م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- ١٠- الاقتصاد في الاعتقاد : أبو حامد الغزالي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة ، بيروت .
- ١١- الإلهيات : جعفر السبحاني ، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية - إيران .
- ١٢- الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وزميله ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٩م .
- ١٣- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ١٩٥٧م .
- ١٤- البخلاء : لأبي عثمان الجاحظ ، دار بيروت .
- ١٥- البيان والتبيين ، لأبي عثمان الجاحظ ، دار الفكر للجمع .
- ١٦- تهليل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي ، تيسير عبد القادر حسين ، دار الازعاسي ، قطر ، ١٩٨٩م .

- ١٧- تفسير القرآن العظيم : لأبى الفداء إسماعيل بن كثير ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .
- ١٨- التراث النقدى والبلاغى لمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى : د . وليد قصاب ، دار الثقافة ، الدوحة قطر ، ١٩٨٥ م .
- ١٩- تاريخ آداب العرب : مصطفى الرافعى ، دار الكتاب العربى بيروت ط٢ ١٣٤٩ هـ .
- ٢٠- الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله القرطبى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٣ م .
- ٢١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : لابن تيمية ، تحقيق على ناصر ، عبد العزيز العسكر ، حمدان محمد ، دار العاصمة الرياض ١٤١٤ هـ ط١ .
- ٢٢- الحيوان : لأبى عثمان الجاحظ ، تحقيق فوزى عطوى ، دار صعب بيروت .
- ٢٣- سر الفصاحة : لأبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي ، تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعدي ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ٢٤- السيرة النبوية : لأبى هشام .
- ٢٥- شرح المواقيف للقاضى الإيجى على بن محد الجرجاني ، ط١ ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٠٧ م .
- ٢٦- طبقات المعتزلة : ابن المرتضى ، تحقيق سوسنة ريفلد فلزر ، ط بيروت ١٩٦١ م .
- ٢٧- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : ليلى العلوى ، المكتبة المصرية ١٤٢٢ هـ ط١ .
- ٢٨- العقيدة النظامية فى الأركان الإسلامية : لإمام الحرمين الجوينى ، تحقيق : د . أحمد حجازى السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر .
- ٢٩- الفرق بين الفرق : عبد القاهر بن طاهر البغدادى تحقيق محمد عبد الحميد ، دار المعرفة بيروت .
- ٣٠- الفصل فى الملل والأهواء والنحل : على بن أحمد بن حزم ، مكتبة السلام العالمية .
- ٣١- لفهرست : لابن النديم ، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣ هـ) ، ط بيروت ١٩٦٤ م .
- ٣٢- فوات الوفيات : محمد الكتبى ، تحقيق مجموعة من العلماء ، دار الثقافة بيروت .
- ٣٣- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ابن القيم ، دار الكتب العلمية ط١ .
- ٣٤- لسان العرب : لأبى الفضل بن منظور ، الطبعة ٣ ، ١٩٩٩ م ، عنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب وزميله ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان
- ٣٥- لوامع الأنوار البهية ، وسواطع الأسرار الأثرية : محمد بن أحمد السفارنى ط٢ دمشق ، ١٤٠٢ هـ .

- ٣٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، وزميله ، ط ١ ، قطر .
- ٣٧- مشكلة الألووية : د . محمد غلاب : ط ٢ ، ١٩٥١م ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
- ٣٨- المعجزة الكبرى - قرآن : لأبي زهرة طبع دار الفكر العربي بالقاهرة .
- ٣٩- المغنى في أبواب التوحي والعدل : للقاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد ، تحقيق : أمين الخولي .
- ٤٠- مفاتيح الغيب أو التفسير الدبر : فخر الدين الرازي ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، طهران .
- ٤١- مقدمة جامع التفسير ، مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة ، للإمام الراغب الصفهاني ، حققه وقدم له وعلق حواشيه ، أ . د . أحمد حسن فرجات ، ط ١ ، ١٩٨٤م ، دار الدعوة ، الكويت ٤٠ .
- ٤٢- الملل والنحل : لأبي الفتح الشهرستاني ، تحقيق أمير مهنا وعلى فاعور ، دار المعرفة ، بيروت .
- ٤٣- مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الفكر العربي .
- ٤٤- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : علي بن عيسى الرمانى الطبعة ٣ ، دار المعارف بمصر ، تحقيق د . محمد خلف الله أحمد وزميله .
- ٤٥- النكت والعيون : لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ للهجرة .
- ٤٦- مجلة الأزهر الشريف ، مجلد / ٢١ ، ١٣٦٩هـ .
- ٤٧- مقالات الإسلاميين : للأمام الأشعري ، عني بتصحيحه هلموت ريتز ، نشر فرانزشتاينر . فيسبادن ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ .
- ٤٨- معجم مقاييس اللغة : لأبن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الحلبي وأولاده القاهرة ط ٢ ، ١٣٩٢هـ .

* * *